

ملفات تربوية

8

القيم التربوية من خلال سورتي لقمان والحجرات وتطبيقاتها العملية داخل المؤسسة التعليمية

إنجاز الأستاذين المتدربين:

عثمان الهرار

عبد الواحد الجيدي

إشراف الدكتور: محمد بولوز

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين

لجهة الرباط سلا زمور زعير

الرباط

مسلك تأهيل أساتذة التعليم الثانوي الإعدادي

شعبة التربية الإسلامية

السنة الدراسية:

2014_2013م

1435_1434هـ

ملفات تربوية

سلسلة أبحاث تربوية شهرية تنشرها اللجنة الإعلامية للجمعية المغربية

لأساتذة التربية الإسلامية

إشراف

عبد السلام محمد الأحمر

تنسيق

د. علال بلحسني

د. سعيد العطري

إخراج

بوجمعة احراير

للتواصل

aampe@yahoo.fr

0661884342: علال بلحسني

0674540873: سعيد العطري

ما ينشر في السلسلة لا يمثل بالضرورة رأي اللجنة

مقدمة

الحمد لله الذي جعل الإنسان من طين، وأمره بعبادته أياما وسنين، ورزقه أموالا وبنين، ووعد عباده المتقين جنات النعيم، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وأفضل الخلق أجمعين، سيد العرب والعجم، ومعلم الناس لينقذهم يوم الدين، ومربيهم على العقيدة الصافية السليمة، والأخلاق الفاضلة والمعاملة الهادئة، وعلى آله وصحبه الذين أخذوا عنه مفاتيح التربية، وسلكوا منهجه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن قضية التربية تعد من القضايا المهمة والأساسية في الحياة، وهي قضية أمة بأكملها، إذ بالتربية الحسنة ترقى الأمم وتتقدم، وتزداد قوة وتماسكا، وبالتربية يحيى الإنسان سعيدا ويلقى ربه سالما، وبالتربية يسلم المجتمع من آفات كثيرة، وأخطار متنوعة، وبالتربية يسعد شباب الأمة... وانطلاقا من أهمية التربية، فقد اهتم الإسلام اهتماما بالغا بها، واضعا أسسها وقواعدها، والمتصفح للقرآن الكريم يلاحظ أن جل آياته تربوية تربي على الأخلاق والعقيدة الصحيحة... والمتتبع لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، يلاحظ غزارة الأحاديث التي تتحدث عن التربية، بل كل الأحاديث النبوية الشريفة تتضمن قضايا تربوية في العبادات أو المعاملات.

ومن ثم ونظرا لهذه الغاية الفائقة بالتربية فقد ارتأيتنا أن نبحت في موضوع القيم التربوية، وذلك انطلاقا من سورتي لقمان والحجرات، وقد عنونا هذا البحث ب: "القيم التربوية من خلال سورتي لقمان والحجرات وتطبيقاتها العملية داخل المؤسسة التعليمية".

❖ أهمية البحث:

لا مرأى في أن عصرنا هذا يشهد تطورات متنوعة على جميع المستويات: انتشار المذات والمغريات والشهوات دون رقابة... مما يعكس ذلك سلبا على الجيل الصاعد، فيصعب تربيته وتأديبه وفق المنهج الرباني، ولا يمكن الحد من هذه الظاهرة إلا من خلال تنبيه كافة الأطر والفعاليات المؤثرة في المجتمع الإسلامي بما ينبغي أن يتربى عليه الأجيال والشباب منذ نعومة أظافرهم، حتى يلقوا ربهم، فواقعا المر يصعب أن تتحسن أخلاقيات أبنائه وبناته وسلوكياتهم، إلا إذا تضافرت جهود المجتمع كله، خاصة الذين ينتمون إلى هذا القطاع، ومن هؤلاء: الأسرة التعليمية. من هنا ندرك أن للتربية أهمية كبيرة في تقدم الأمم والشعوب، ولا يمكن بحال من الأحوال أن ترقى أي أمة - في جميع المستويات - إن تجردت عن الأخلاق والتربية.

أسباب البحث في الموضوع:

لا جدال في أن الأمة تشكو حالها إلى الله تعالى، وتتضرع إليه من سوء أخلاق وتربية متعلميها، ومما آلت إليه أوضاع التلاميذ من النقص الكبير في القيم السامية، والأخلاق الرفيعة التي تشبع بها آباؤهم وأجدادهم، وكانوا مضرب المثل في تمثلها.

وقد يتساءل المرء عن أسباب هذا البعد المخيف والمرعب عن هذه القيم، علما أن المقررات الدراسية - في كل مستوياتها - لا تخلو من آيات وأحاديث تدعو إلى التشبث والتشبع بهذه القيم الإسلامية الحميدة.

فهل المشكلة ترجع إلى المنظومة التربوية برمتها، وأن واضعيها لم يجيدوا سبكها وحسن صياغتها؟ أم أن الخلل في ذات المتعلمين، وأنهم أرباب زمنهم الذي يقال عنه: إنه زمن السرعة، وأن الأخلاق والقيم لا مستقر لها في أفئدتهم؟ أم أن الخطر قدم من غياب القدوة في المعلم والأستاذ

والمربي؟ أم أن الأسرة استقلت استقلالاً كاملاً عن وظيفتها ودفعت بفلذات أكبادها إلى من تثق فيهم دون مراقبة ولا محاسبة؟...

هذه بعض الأسباب قد يصعب الجزم بصحة إحداها دون الأخرى، أو لا نؤكد واحدة منها دون الأخرى، ولكن الحقيقة المؤكدة أن المتعلمين باتوا بمنأى عن كثير من القيم الإسلامية والأخلاق الفاضلة، وهذا ما لاحظناه في مؤسساتنا التعليمية، وهو ما دفع بنا للنش في هذا الموضوع واستخراج بعض القيم المبنوثة في سورتى لقمان والحجرات والتي يدرسها تلامذة السلك الإعدادي، ومدى تطبيقهم لهذه القيم.

وهناك أسباب أخرى يمكن إجمالها في سببين هما:

- حب الاطلاع والاستزادة من هذا الفن من خلال الاطلاع على مجموعة متنوعة من البحوث والدراسات.

- اشتغال السورتين على تربية الإنسان في علاقته مع نفسه ومع الله ومع غيره.

تمهيد:

يخرج الولد إلى الحياة دونما قدرة على مواجهة مستلزماتها، فهو لا يدرك وجود نفسه ولا يستطيع أن يعبر عما يحس به، ويعجز عن حماية نفسه، ولا ينطق لغة قومه، فهو كائن آدمي الصورة، فطري الطبيعة والمسلك، ولكن فطرته عاجزة، ومسلكه عشوائي، وإذا كان الإنسان كأننا اجتماعياً بطبعه فلا يمكن أن يولد إلا في جماعة على قدر معقول من الاستقرار حتى تستطيع أن توفر له الحماية والرعاية، وتعمل على إكسابه المهارات التي تمكنه من الاعتماد على نفسه في المستقبل ومواصلة الحياة، وعندما نقارن الوليد البشري بمواليد الكائنات الأخرى مثل الذباب والنحل والطيور والأسماك وغير ذلك، فإننا نراها تعتمد على نفسها منذ البداية، بخلاف الإنسان، فإنه يحتاج إلى الرعاية، وإلى العملية التربوية الواعية، وإلى مبادئ القيم والأخلاق، ولذلك قال أحمد شوقي:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت *** فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا

وبهذا البيت الرصين يضع أحمد شوقي معياراً قيماً نستطيع أن نحكم به على الأمم والشعوب، ونقارن بينهما من حيث المتانة والأصالة، ومن حيث القوة والصلابة، ومن حيث الرقي في سلم الحياة، فالأمة لا تستحق أن يطلق عليها هذه اللفظة إذا ما تجردت من القيم الأخلاقية، التي تحكم سلوك الأفراد، والعلاقة بين الجماعات، وتزودها بالعزة والمنعة، وبالاستمرار في الحفاظ على تراثها وأصالتها التي تميزها عن بقية الأمم والشعوب، والقيم المعيارية هي في واقع الأمر أهداف تسعى لبلوغها الأمم والشعوب، وبتمثلها الأفراد والجماعات، ويقاس بها السلوك الفطري والانفعالي والحركي لمعرفة القرب أو البعد من الأمل المنشود، والتطلعات المرموقة.

الفصل الأول: مفهوم القيم وأصولها.

المبحث الأول: مفهوم القيم وأصولها.

من خلال دراستنا لمادة " قوم " في جل مصادر اللغة العربية، لاحظنا أنها وردت على استعمالات ومصطلحات متعددة ومتنوعة وذلك " كالقيم والقيوم والاستقامة والقائم وما سواه ". قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة في مادة " قوم ": " القاف والواو والميم " أصلان صحيحان يدل أحدهما على جماعة من الناس، وربما استعير في غيرهم. والآخر على انتصاب أو عزم " ¹. وذكر الراغب الأصفهاني في المفردات: " تقال في الطريق الذي على خط مستو، والإنسان المستقيم هو الذي يلزم المنهج المستقيم " ².

وقد ورد مصطلح الاستقامة والمستقيم في القرآن الكريم بمعنى الهداية والطريق المستقيم والعدل، قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: " لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ " أي من أراد الهداية. ³ وقال في تفسير قوله تعالى: " أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ " أي على طريق واضح بين، والمؤمن يكون في نفسه مستقيماً وطريقه مستقيماً. ⁴ قال سيد قطب في تفسير قوله تعالى: " لمن شاء منكم أن يستقيم " أي أن طريق الهداية ميسر لمن يريد. ⁵ والتقويم " هو بيان قيمة الشيء " ⁶.

وقد ورد في القرآن الكريم بمعنى حسن الصورة والهيئة، قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: " لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ " ⁷: أي أنه تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة وشكل، منتصب القامة سوي الأعضاء وحسنها ⁸.

أصول هذه القيم:

منذ أن بعث الله سبحانه وتعالى نبيه إبراهيم عليه السلام بملة الإسلام، كان دعوؤه المبارك لأمتة أن يبعث فيها رسولا يركز فيها ثلاث قيم جمعها قوله تعالى " ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم " ⁹ وقد استجاب الله تعالى لنداء نبيه وخليئه فبعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ومربيا وأنزل معه الكتاب والحكمة، فقال صلى الله عليه وسلم: " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " ¹⁰ ومن هذا المنبع الثري نهل جيل الصحابة الكرام قيم الإسلام، وصنعوا بواسطتها جيلا حمل راية الإسلام إلى العالم.

وانطلاقا من ذلك كانت الأصول العامة للقيم الإسلامية ملخصة في ثلاثة:

1- القرآن الكريم.

2 - السنة والسيرة النبوية.

1 - ج 5 ص 43 .

2 - الراغب الأصفهاني : مفردات ألفاظ القرآن، مادة " قوم " .

3 - تفسير القرآن العظيم، ج 8، ص، 263 .

4 - تفسير القرآن العظيم، ج 8، ص 131.

5 - في ظلال القرآن، ج 6، ص 3843، ط 1985 .

6 - الراغب الأصفهاني، مصدر سابق .

7 التين 04

8 - تفسير القرآن العظيم، ج 8، ص 343.

9 البقرة 138.

10 رواه الإمام أحمد في مسند المكثرين.

3- اجتهادات علماء التربية المسلمين.¹¹

سمات هذه القيم ومجالاتها:

والحاصل أن كل ما قرئ من دراسات في المجال تكاد تفاصيلها ومجالاتها تنحصر عند التأمل في خمس صفات وسمات هي:

الربانية، الواقعية، العالمية، التكيف، الاستمرار، لكن سنقتصر على الثلاثة الأولى.
أ- الربانية:

قال أبو بكر بن العربي المعافري: "إن الله خلق آدم على صورته، يعني على صفاته، فإن الله خلقه عالما قادرا مريدا متكلمًا... فليس لله خلق هو أحسن من الإنسان جمال هيئة وبديع تركيب"¹² ومن هنا نعلم ربانية هذه القيم، لأنه حينما خلق الله هذا الإنسان وأصله الذي هو آدم ونفخ فيه من روحه زرعت قيمه هذه في كيانه، وقد قال تعالى: "الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (7) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (8) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ"¹³، وبين ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: "الولد يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"¹⁴

ب - الواقعية:

إن القيم الإسلامية ليست قيما نظرية مثالية، وإنما هي خلاصة شريعة نزلت حسب الواقع والأحداث واستجابت لمشاكل الناس وقضاياهم، وليست فكريا يبتغي المدنية الفاضلة التي لا وجود للشر فيها، بل هي واقعية في مراميها وأهدافها، قاعدتها قوله تعالى " قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَىٰ أَثْرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ"¹⁵

والعجلة هنا الترقى في سلم الرضا بحسب الطاقة والاستطاعة " لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا "¹⁶ فالعدل على سبيل المثال قيمة إسلامية راسخة، ولكن تحقيقه في الواقع هو مدافعة للظلم بقدر الاستطاعة، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صدق فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار فليأخذها أو ليتهاكها"¹⁷

ج - العالمية:

لا يختلف اثنان من ذوي الألباب أن العدل حسن والظلم سيء، وأن الكذب مشين، والصدق مزين، والبخل والشح مكروهان، والسخاء والبذل مطلوبان مهما اختلفت الملل والنحل.
فتلك وأضدادها قيم عالمية هي أصل الفطرة جاء بها الإسلام، قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ"¹⁸

¹¹ القيم الإسلامية في المناهج الدراسية د.خالد الصمدي، ص 21- 24.

¹² أحكام القرآن، ج 4 ص 415

¹³ السجدة 09

¹⁴ البخاري في كتاب الجنائز

¹⁵ سورة طه، الآية: 84

¹⁶ البقرة 286

¹⁷ البخاري كتاب المظالم والغصب.

¹⁸ الأنبياء 107

وأما مجالاتها فإنها تخاطب مجالات الحياة كلها وتستهدف توجيهها إلى الأفضل والأسمى، وذلك حسب سلوك وتفاعل الإنسان المكلف مع محيطه الذي يعيش فيه، عقائديا، معرفيا، ثقافيا، اجتماعيا اقتصاديا...

وانطلاقا من هذا فإنه يمكن إرجاعها إلى تسعة مجالات:

- ◆ القيم العقائدية والتعبدية.
- ◆ القيم الفكرية والثقافية.
- ◆ القيم الاجتماعية والأسرية.
- ◆ القيم الإسلامية والتواصلية.
- ◆ القيم الاقتصادية والمالية.
- ◆ القيم الوقائية والصحية.
- ◆ القيم الحقوقية.
- ◆ القيم الفنية والجمالية.
- ◆ القيم البيئية¹⁹.

¹⁹ القيم الإسلامية في المناهج الدراسية، د، خالد الصمدي، ص 30- 37 بتصرف.

المبحث الثاني : مفهوم التربية واشتقاقاتها.

❖ مفهوم التربية.

التربية في اللغة: ترجع إلى أصول ثلاثة: رَبًا، رَبِي، رب. فالأصل الأول: ربا **يربو**، معناه النمو والزيادة. أما الأصل الثاني: ربي على وزن خفي يخفى فمعناه نشأ وترعرع. أما الأصل الثالث: رب يرب فمعناه أصلح وتولى أمره. قال ابن منظور في لسان العرب: ربا الشيء **يربو** رباء زاد ونما، وأرببته نميته.²⁰ قال ابن فارس: رب، الراء والباء يدلان على أصول: فالأول: إصلاح الشيء والقيام عليه، فالرب المالك والخالق، والرب المصلح للشيء، والله جل ثناؤه الرب لأنه مصلح خلقه، وربيت الصبي أربه ورببته أربه، والربيبة الحاضنة، وربيب الرجل ابن امرأته الذي يقوم على أمر الربيب، والأصل الآخر: لزوم الشيء والإقامة عليه.²¹ وقال الراغب: الرب في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى التمام.²² من خلال ما تقدم نجد أن التربية تتكون من العناصر التالية:

- حماية الطفل وتعهده بالرعاية، وتنمية مواهبه.
- إرشاده إلى الفطرة السليمة، والتدرج في تربيته.

التربية اصطلاحاً: وقد لخص الأستاذ عبد الرحمان الباني نتائج تحليل التربية إلى ما يلي:

- المربي الحق هو الله سبحانه، لأنه هو الخالق خالق الفطرة، وواهب المواهب.
- التربية عملية لا بد أن تستضيء بنور الشريعة الإلهية، وتسير وفق أحكامها.
- التربية عملية هادفة لها أغراضها وأهدافها وغاياتها.
- التربية عملية تسيير وفق ترتيب منظم صاعد ينتقل مع الناشئ من طور إلى طور، ومن مرحلة إلى مرحلة، وفي كل شأن من الشؤون.²³

المبحث الثالث : التعريف بسورة لقمان .

التعريف بالسورة:

سورة لقمان مكية ماعدا الآيات 29، 28، 27 فهي مدنية، نزلت بعد سورة الصافات، وهي في المصحف بعد سورة الروم آياتها 34، ترتبها الحادية والثلاثون وقد بدأت بأحد حروف الهجاء " الم ". ولقمان اسم لأحد الصالحين اتصف بالحكمة، وتأتي في الجزء 21 ، الحزب ، 42، الربع 4،5

سبب التسمية:

سميت سورة لقمان لاشتغالها على قصة لقمان الحكيم التي تضمنت فضيلة الحكمة وسر معرفة الله تعالى وصفاته وذم الشرك والأمر بمكارم الأخلاق والنهي عن القبائح والمنكرات وما تضمنه كذلك من الوصايا الثمينة التي أنطقه الله بها، فهي سورة تربية الأبناء، تحمل في آياتها أساليب رائعة لتربيتهم على منهج الله تعالى، تربية شاملة لكل ما يحتاجه الأبناء في دينهم ودنياهم، هذه التربية تشمل المحاور التالية:

²⁰ لسان العرب: مادة ربا. ج: 6، ص: 307. الصحاح للجوهري.

²¹ معجم مقاييس اللغة، ج: 2، ص: 381.

²² مفردات القرآن، ص: 184.

²³ مدخل إلى التربية ص: 13. الكتاب الإسلامي، ط: 2، 1983.

- توحيد الله تعالى
- بر الوالدين
- أهمية العبادة.
- الإيجابية
- فهم حقيقة الدنيا
- الذوق والأدب
- التخطيط للحياة

محور مواضيع السورة:

هذه السورة الكريمة سورة لقمان من السور المكية التي تعالج موضوع العقيدة، وتعني بالتركيز على الأصول الثلاثة لعقيدة الإيمان وهي الوحدانية والنبوة والبعث والنشور كما هو الحال في السورة المكية

ختامها:

كما بدأت السورة بتوحيد الله، فإنها ختمت بالتركيز على علم الله وقدرته، وعجز الخلق عن الإحاطة بشيء من غيبه: "إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَادَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" ²⁴ ومن لطائف السورة، أنها ركزت على الحكمة بشكل أساسي، فقد بدأت بقوله تعالى: "الم تلك آيات الكتاب الحكيم"

وحتى عندما أنكرت على من يصد عن سبيل الله، قال تعالى: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ" ولهو الحديث هو عكس الحكمة. وليس هذا فحسب، بل أن أول آية ذكرت لقمان جاء فيها قوله تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ" ²⁵ وكان وصايا لقمان لابنه التي جاءت في السورة هي عصارة حكمته وتجاربه في الحياة، ينقلها لمن يأتي بعده... كما يلاحظ من السورة أيضا أن هذا الكم من التوجيهات قد غلّفه الأب بالحنان والعاطفة الشديدين. وكأنا عندما نقرأ هذه الآيات، نشعر بلقمان، ذلك الرجل الهادئ، الذي يعظ ابنه برقة ويقول له قبل كل موعظة: "يَبْنَى.. يَبْنَى" فالسورة تقول للأب: صاحب أولادك واكسب مودتهم قبل أن تعظهم، فليكلّمهم الأب المسلم عن نفسه وتجاربه وأخطائه في الحياة، وليستعمل الصداقة معهم لينصحهم قبل استعمال الأمر والنهي بشدة.

أما اسم لقمان فاسم عجمي غير عربي ²⁶ وقد اختلف في نسبه، فقيل هو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارح، وهو أزر أبو إبراهيم عليه السلام، هكذا ذكره ابن إسحاق. وقيل هو لقمان بن عنقاء بن سدون، وكان نوبيا من أهل ايلة، ذكره السهيلي، قال وهب: (كان ابن أخت أيوب عليه السلام). وقال مقاتل ابن خالته، وقيل كان من أولاد أزر وعاش ألف سنة، وأدرك داود عليه السلام وأخذ منه العلم. وكان يفتي قبل بعثته، فلما بعث قطع الفتوى ²⁷.

²⁴ لقمان 33

²⁵ لقمان 11

²⁶ أحمد الخطيب، إرشاد الساري في شرح البخاري، ج/7 ص: 288. مطبعة الأميرية المصرية. ط. 1323 هـ.

²⁷ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. ج:14. ص: 59. دار إحياء التراث العربي بيروت. 1966.

ومن صفاته، قال مجاهد: كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين، وفي رواية مصفح القدمين²⁸.

كان لقمان من أخير الناس حكيماً وفطيناً رقيق القلب صادق الحديث، صاحب أمانة وعفة وعقل، وإصابة في القول، وكان رجلاً سكيناً، طويل التفكير، عميق النظر، لم ينم نهاراً قط، ولم يره أحد يبزق، ولا يتنح، ولا يبول ولا يتغوط، ولا يغتسل ولا يعبث، ولا يضحك، وكان لا يعيد منطقاً نطقه، إلا أن يقول حكمة يستعيدها أي واحد، وكان قد تزوج وولد أولاداً فماتوا فلم يبك عليهم، وكان يغشى السلطان ويأتي الحكام لينظر ويتفكر ويعتبر، فبذلك أوتي ما أوتي²⁹.

المبحث الرابع: بيان الوصايا التي قدمها لقمان لابنه .

يتناول هذا المبحث بيان الوصايا القيمة التي أوصى بها لقمان ابنه كي يتضح لنا أهميتها في تربية الأبناء على أسسها القوية كما حددها - لقمان - لابنه، ذلك الأب الرحيم الذي أتاه الله الحكمة فهو ينظر إلى ابنه نظرة شفقة وعطف، حتى لا يقع في مهاوي الزيغ والضلال، ولهذا كانت وصاياه من الأهمية بمكان، وقد بينها لنا القرآن الكريم بأسلوبه ومعانيه المعجزة الخالدة، فكانت وصاياه أنموذجاً يتوافر فيه الإخلاص والصواب، وعلى الآباء أن يسلكوا مسلكه في تنشئة أبنائهم تنشئة إسلامية صحيحة وفق ما تعرضه الآيات الكريمة من كتاب الله عز وجل والتي ذكرت بها وصايا لقمان³⁰. قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ. وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ. وَوصينا الإنسان بوالديه حملاًته أمه وهنأ على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير..... يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير. يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور. ولا تصغر حذك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور وأقصد في مشيك وأغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)³¹.

من خلال العرض السابق للآيات الكريمة يمكن توضيح الوصايا في النقاط التالية:

الوصية الأولى:

توحيد الله وإفراده بالعبادة لله وحده لا شريك له في ذلك فهو المستحق للعبادة وحده - سبحانه وتعالى - (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم).

الوصية الثانية:

بر الأبناء لأبائهم (وصينا الإنسان بوالديه ...) الآية.

الوصية الثالثة:

أن يراقب العبد الله سبحانه وتعالى في حركاته وسكناته وجميع أعماله، فالله عز وجل لا تخفى عليه خافية لا في الأرض ولا في السماء (يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ...) الآية.

الوصية الرابعة:

الأمر بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على تحمل المشاق في سبيل ذلك (يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر ...) الآية.

²⁸ ابن كثير ج: 5، ص: 380. دار الفكر للنشر والتوزيع. ط: الأولى 1966.

²⁹ نفس المرجع ص: 381.

³⁰ عبد المحسن الأنصاري. معالم أصول التربية الإسلامية من خلال وصايا لقمان لابنه ج 1 ص:

³¹ (سورة لقمان: الآيات 12 - 19.

الْوَصِيَّةُ الْخَامِسَةُ:

التَّوَاضُّعُ لِعِبَادِ اللَّهِ وَالْإِقْبَالُ عَلَيْهِمْ بِوَجْهِ طَلِيقٍ وَالْإِبْتِعَادُ عَنِ مَظَاهِرِ الْكِبْرِ وَالغُرُورِ، وَخَفْضُ الصَّوْتِ أَثْنَاءَ الْحَدِيثِ مَعَهُمْ وَعَدَمُ رَفْعِهِ (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ) الْآيَةُ (وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ) الْآيَةُ³².

المبحث الخامس: الجوانب التربوية لوصايا لقمان

ومن الجوانب التربوية المتضمنة لوصايا لقمان لابنه ما يلي:

أولاً: الدعوة إلى غرس عقيدة التوحيد:

إن المتدبر لكتاب الله سبحانه وتعالى والمتأمل في آياته البينات يتضح له تمييز المنهاج الرباني بمفاهيم تربوية لا يجد لها مثيلاً في المناهج والنظم والنظريات التربوية البشرية، تستهدف تلقيم المفاهيم الربانية خير الإنسان في الدنيا والآخرة جميعاً، وينطلق المنهاج الرباني نحو بناء القيم الإسلامية التي تتظافر للوصول بالإنسان إلى الصلاح والإصلاح وشجب كل صور الفساد في النفس والمجتمع لتحقيق له بذلك كماله الإنساني، حيث إن المنهاج الرباني واضح في أهدافه وغاياته ليتمكن المسلم من اتباع هديه، وهو مؤمن بمقاصده العظيمة، وموقن بالخير الذي يعود عليه نتيجة التمسك به والعمل بأوامره واجتناب نواهيه، ومن هنا فإن منهاج التربية الإسلامية يركز على غرس الحق والعدل والإحسان والإخاء والمساواة والعفو والرحمة والمعروف والاستقامة والصبر... وغير ذلك من أفعال الخير وصالح الأعمال.

والأسرة المسلمة هي المدرسة الأولى التي تقوم بتوجيه وتربية الأبناء تربية صالحة. قال الله عز وجل: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)³³.

فالأبوان هما المسؤولان في الدرجة الأولى عن انحراف أبنائهم خلقياً واجتماعياً وعقدياً، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "ما من مؤلود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء"³⁴.

وفي هذا دلالة واضحة على أن المؤلود يولد على فطرة الإسلام، لكن تأثير الأبوين وأسلوب تربيتهما هما اللذان يوجهان عقيدة هذا الطفل نحو اليهودية أو النصرانية أو غيرهما. ومن هنا كانت مهمة الأبوين في التربية من الأهمية بمكان، فالطفل يحاكي أبويه في جميع سلوكهما ومعتقداتهما وأخلاقهما.

فأول واجب يجب على الأبوين القيام به والاهتمام بأمره دون كلل، هو:

- غرس عقيدة التوحيد في نفس الطفل وتوجيه عواطفه نحو حب الله ورسوله، وإخباره بأن الله يجب أن يكون أحب إليه من أمه وأبيه ونفسه، والإيمان بالله الذي لا إله غيره وبملائكته ورسوله، وتوحيد الله في الألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية، لأن الإيمان بالله هو الموجه لسلوك الإنسان، والدافع له إلى الخير، والنصير له من حيث العناية والرعاية والتوفيق، كما أنه الذي يصرفه عن طريق الشر ويجعله متحلياً بالفضائل وحسن الخلق³⁵.

³² المصدر السابق: معالم أصول التربية الإسلامية.

³³ (سورة التَّحْرِيمِ: آيَةُ 6)

³⁴ (البخاري: صحيح البخاري مع فتح الباري 219/3 كتاب الجنائز 23 باب إذا أسلم الصبي رقم الحديث 1358 -

1359، ومسلم: صحيح مسلم 2047/4 كتاب القدر 46 باب كل 6 رقم الحديث 2658 واللفظ للبخاري.

³⁵ (عباس مجوب: أصول الفكر التربوي في الإسلام ص 89 - 92).

وَالْمَقْصُودُ بِالْإِيمَانِ أَي: الْإِيمَانُ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: (أَمَنْ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) 36. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ) 37.

وَأَمَّا السَّنَةُ فَقَدْ ذَكَرْتَ أَرْكَانَ الْإِيمَانِ مَجْتَمِعَةً فِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: "بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدٌ بَيَاضَ الثِّيَابِ، شَدِيدٌ سَوَادَ الشَّعْرِ، لَا يَرَى عَلَيْهِ أَثَرَ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مَنْ أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجَبْنَا لَهُ يُسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ" الْحَدِيثُ 38.

إِنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ هُوَ الْمَوْجَهَ لِلسُّلُوكِ وَالضَّابِطَ لَهُ وَالْمُتَّصِلَ اتِّصَالًا وَثِقًا بِالْأَعْمَالِ الصَّادِرَةِ مِنَ الْإِنْسَانِ، فَإِنَّ التَّرْبِيَةَ الْإِسْلَامِيَّةَ تَرْبِطُ دَائِمًا بَيْنَ الْعَمَلِ وَالسُّلُوكِ ثُمَّ بَيْنَ الْعَمَلِ الصَّادِرِ مِنْ هَذَا الْإِيمَانِ وَبَيْنَ الْجَزَاءِ، قَالَ تَعَالَى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا) 39. وَيَقُولُ تَعَالَى: (وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) 40.

ثَانِيًا: بِرَ الْوَالِدِينَ:

إِنَّ عَطْفَ الْآبَاءِ عَلَى الْإِبْنَاءِ مِنْ أَبْرَزِ صُورِ الرَّحْمَةِ، وَهُوَ يَفْرُضُ عَلَى الْإِبْنَاءِ أَنْ يَقَابِلُوا رَحْمَةَ وَالِدِيهِمْ لَهُمْ بِأَنْ يَرْعَوْهُمْ - كِبَارًا - فَيُخَفِّضُوا لَهُمْ جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ، وَالِدُعَاءَ لَهُمْ بِالمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ بِهِمْ. فَعَطْفَ الْوَالِدِينَ عَلَى أَوْلَادِهِمْ عَطَاءٌ لَا يَقْدَرُ بِثَمَنِ، وَلَا يَنْتَظَرُ مِنْهُ الْعَوَضُ، إِنَّهُ فَطَرَهُ فَطَرَ اللَّهُ الْوَالِدِينَ عَلَيْهَا، وَلِذَلِكَ كَانَ بَرَّهُمَا مِنْ أَعْظَمِ الْوَأَجِبَاتِ وَفِي مُقَدِّمَةِ الصَّلَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، كَمَا كَانَ عَقُوقَهُمَا مِنَ الْكِبَائِرِ الْمُقَارِبَةِ لِلشَّرِكِ بِاللَّهِ، وَلِهَذَا وَرَدَ الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمَا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَقِبَ الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْإِشْرَاقِ بِهِ. فَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا..) الْآيَةُ 41.

وَيَعْرُضُ لِقَمَانِ الْحَكِيمِ فِي وَصِيَّتِهِ لِابْنِهِ الْعِلَاقَةَ بَيْنَ الْوَالِدِينَ وَالْأَوْلَادِ فِي أُسْلُوبِ رَقِيقٍ، وَفِي صُورَةٍ مُوَحِّيةٍ بِالْعَطْفِ وَالرَّفْقَةِ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ رَابِطَةَ الْعَقِيدَةِ الْمُقَدِّمَةِ عَلَى تِلْكَ الْعِلَاقَةِ الْوَثِيقَةِ 42. وَلِهَذَا كَانَ شُكْرُ الْوَالِدِينَ بَعْدَ شُكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِأَنَّهُ الْمُنْعَمُ الْأَوَّلُ 43.

مِمَّا سَبَقَ يُمَكِّنُ الْقَوْلُ: إِنَّ عِلَاقَةَ الْإِبْنَاءِ بِالْوَالِدِينَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عِلَاقَةً قَوِيَّةً مَبْنِيَّةً عَلَى التَّقْدِيرِ وَالاحْتِرَامِ، ذَلِكَ أَنْ فَضْلَهُمْ عَلَى أَبْنَانِهِمْ لَا يَدْرِكُ مَدَاهُ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقْدِرَهُ، وَمَنْ هُنَا كَانَ تَوْصِيَّةَ الْإِبْنَاءِ بِأَبَانِهِمْ تَتَكَرَّرُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالسَّنَةُ الْمُطَهَّرَةُ. وَلِهَذَا يَجِيءُ الْأَمْرُ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدِينَ فِي

36 (سُورَةُ الْبَقَرَةِ: آيَةُ (285).

37 (سُورَةُ الْبَقَرَةِ: آيَةُ (177).

38 (صَحِيحُ مُسْلِمٍ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ 259/1 كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ بَيَانِ الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ (1) رَقْمُ الْحَدِيثِ (1).

39 (سُورَةُ الْكَهْفِ: آيَةُ (107).

40 (سُورَةُ الْعَصْرِ: آيَةُ (1 - 3).

41 (سُورَةُ النَّسَاءِ: آيَةُ 36.

42 (الْمُرْجِعُ السَّابِقُ.

43 (الْقُرْطُبِيُّ: الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ 63/14.

صُورَةَ قَضَاءٍ مِنَ اللَّهِ يَحْمِلُ مَعْنَى الْأَمْرِ الْمُؤَكَّدِ بَعْدَ الْأَمْرِ الْمُؤَكَّدِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: (وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَانِي صَغِيرًا)⁴⁴.
 وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا) مَا يُفِيدُ أَنَّ أَوَّلَ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ الرَّعَايَةِ وَالْأَدَبِ أَلَّا يَنْدَ مِنْ الْوَلَدِ مَا يَدُلُّ عَلَى الضَّجْرِ وَالضِّيْقِ، وَمَا يَمْشِي بِالْإِهَانَةِ وَسُوءِ الْأَدَبِ ... (وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا) وَهِيَ مَرْتَبَةٌ أَعْلَى إِبْجَابِيَّةٌ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُ لَّهُمَا بِالْإِكْرَامِ وَالْإِحْتِرَامِ.

(وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) وَهَذَا يَشْفِي التَّعْبِيرَ وَيُلْطَفُ، وَيَبْلُغُ شَغَافَ الْقَلْبِ وَحَنَائِيَا الْوُجْدَانِ فَهِيَ الرَّحْمَةُ تَرَقُّ وَتَلْطَفُ حَتَّى وَكَأَنَّهَا الذَّلُّ الَّذِي لَا يَرْفَعُ عَيْنَا وَلَا يَرْفُضُ أَمْرًا وَكَأَنَّهَا لِلذَّلِّ جَنَاحٌ يَخْفِضُهُ إِبْدَانًا بِالسَّلَامِ وَالِاسْتِسْلَامِ.

(وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَانِي صَغِيرًا) فَهِيَ الذِّكْرَى الْحَانِيَّةُ ذَكَرَى الطِّفْلَةَ الضَّعِيفَةَ يَرْعَاهَا الْوَالِدَانِ، وَهُمَا الْيَوْمَ فِي مِثْلِهَا مِنَ الضَّعْفِ وَالْحَاجَةِ إِلَى الرَّعَايَةِ وَالْحَنَانِ⁴⁵.

وَمِمَّا لَاشْكُ فِيهِ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَنْ يُوْفِيَ وَالِدِيهِ حَقَّهُمَا عَلَيْهِمَا أَحْسَنَ إِلَيْهِمَا، لِأَنَّهُمَا كَانَا يَحْسِنَانِ إِلَيْهِ حِينَمَا كَانَا صَغِيرًا وَهُمَا يَتَمَنِّيَانِ لَهُ كُلَّ خَيْرٍ وَيَخْشِيَانِ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ سُوءٍ وَيَسْأَلَانِ اللَّهَ لَهُ السَّلَامَةَ وَطَوْلَ الْعُمُرِ، وَيَهْوَنُ عَلَيْهِمَا مِنْ أَجْلِ كُلِّ بَذْلِ مَهْمَا عَظُمَ وَيَسْهَرَانِ عَلَى رَاحَتِهِ دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِأَيِّ تَضَجْرٍ مِنْ مَطَالِبِهِ، وَيَحْزَنَانِ عَلَيْهِ إِذَا أَلَمَهُ أَيُّ شَيْءٍ، أَمَا الْوَلَدُ فَإِذَا قَامَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِحْسَانِ لَوَالِدِيهِ فَإِنَّ مَشَاعِرَهُ النَّفْسِيَّةَ نَحْوَهُمَا لَا تَصِلُ إِلَى مِثْلِ مَشَاعِرِ أَنْفُسِهِمَا الَّتِي كَانَتْ نَحْوَهُ وَلَا تَصِلُ إِلَى مِثْلِ مَشَاعِرِهِ هُوَ نَحْوُ أَوْلَادِهِ إِلَّا فِي حَالَاتٍ نَادِرَةٍ جَدًّا⁴⁶.

وَيَتَحَقَّقُ حَقُّ الْوَالِدَيْنِ عَلَى الْأَوْلَادِ بِطَاعَتِهِمَا مَا دَامَا يَأْمُرَانِ بِالْخَيْرِ، فَإِنَّ أَمْرًا بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلَا تَجُوزُ طَاعَتُهُمَا، إِذْ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ، وَلَكِنْ لَا يَسْقُطُ حَقُّهُمَا فِي الْمُعَامَلَةِ الطَّيِّبَةِ وَالصَّحْبَةِ الْكَرِيمَةِ⁴⁷.

ثَالِثًا: التَّربِيَّةُ عَلَى الْإِيمَانِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ:

قَالَ تَعَالَى: (يَا بَنِيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ)⁴⁸.

فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ يَعْلَمُ لِقَمَانِ ابْنِهِ مَدَى قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْوَاسِعَةِ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عِدَدًا، فَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا شَرِيكَ لَهُ. وَهُنَاكَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ تَدُلُّ عَلَى سَعَةِ عِلْمِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ، فَمَنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: (وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)⁴⁹. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ)⁵⁰.

44 (سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: الْآيَاتَانِ (23 - 24))

45 (سيد قطب: فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ 4 / 221 - 222)

46 (عبد الرَّحْمَنِ الْمِيدَانِي: الْأَخْلَاقُ الْإِسْلَامِيَّةُ 22/2)

47 (سيد قطب: فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ 2788/5)

48 (سُورَةُ لُقْمَانَ: آيَةٌ (16))

49 (سُورَةُ الْأَنْعَامِ: آيَةٌ (59))

50 (سُورَةُ فَاطِرٍ: آيَةٌ (11)) .

وَكَانَ تَوْجِيهَ لُقْمَانَ لِإِنِّهِ بِقُدْرَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَاطْلَاعِهِ عَلَى سَعَةِ عِلْمِهِ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَمَا قَالَ ابْنُ لُقْمَانَ لِأَبِيهِ: يَا أَبَتِ إِنَّ عَمَلَتِ الْخَطِيئَةَ حَيْثُ لَا يَرَانِي أَحَدٌ كَيْفَ يَعْلَمُهَا اللَّهُ؟ فَقَالَ لُقْمَانُ: (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ...) فَمَازَالَ ابْنُ لُقْمَانَ يَضْطَرِبُ حَتَّى مَاتَ⁵¹.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ)، إِشَارَةٌ إِلَى دِقَّةِ الْحِسَابِ وَعَدَالَةِ الْمِيزَانِ مَا يَبْلُغُهُ هَذَا التَّعْبِيرُ الْمَصُورُ حَبَّةً مِنْ خَرْدَلٍ، صَغِيرَةٌ ضَائِعَةٌ لَا وَزْنَ لَهَا وَلَا قِيَمَةً (فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ) أَي صَلْبَةٌ مَحْشُورَةٌ فِيهَا لَا تَظْهَرُ وَلَا يَتَوَصَّلُ إِلَيْهَا (أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ ...) فِي ذَلِكَ الْكِيَانِ الْهَائِلِ الشَّاسِعِ الَّذِي يَبْدُو فِيهِ النُّجْمُ الْكَبِيرُ ذُو الْجَرْمِ الْعَظِيمِ نَقْطَةً سَابِحَةً أَوْ ذُرَّةً تَائِهَةً (أَوْ فِي الْأَرْضِ) ضَائِعَةٌ فِي ثَرَاهَا وَحِصَايَاهَا لَا تَبِينُ (يَأْتِ بِهَا اللَّهُ) فَعِلْمُهُ يَلْحَقُهَا وَقُدْرَتُهُ لَا تَقْلُتُهَا⁵². وَيُرَادُ مِنْ ذَلِكَ الْأَعْمَالِ، الْمَعَاصِي وَالطَّاعَاتِ، أَي إِنَّ تَكَ الْحَسَنَةَ أَوْ الْخَطِيئَةَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ، أَي لَا تَفُوتُ الْإِنْسَانَ الْمُقَدَّرَ وَفُوعَهَا مِنْهُ، وَبِهَذَا الْمَعْنَى يَتَحَصَّلُ فِي الْمَوْعِظَةِ التَّرْجِيئِيَّةِ وَالتَّخْوِيفِ⁵³.

وَبِنَاءٍ عَلَى مَا سَبَقَ ذَكَرَهُ يَنْبَغِي عَلَى الْأَبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ وَكَذَلِكَ الْعَامِلِينَ فِي مَجَالِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ أَنْ يَغْرَسُوا فِي قُلُوبِ أَوْلَادِهِمْ وَتَلَامِيذِهِمْ مِرَاقِبَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَعْمَالِهِمْ وَسَائِرِ أَحْوَالِهِمْ، لِتَصْبِحَ هَذِهِ الْمِرَاقِبَةُ الْإِلَهِيَّةُ سَلُوكًا لَزِمًا لَهُمْ فِي كُلِّ تَصَرُّفَاتِهِمْ، وَيَتِمُّ ذَلِكَ بِتَرْوِيضِ الْوَلَدِ عَلَى مِرَاقِبَةِ اللَّهِ وَهُوَ يَعْمَلُ فَيَتَعَلَّمُ الْإِخْلَاصَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي كُلِّ أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ وَسَائِرِ تَصَرُّفَاتِهِ وَيَكُونُ مِمَّنْ شَمِلَهُمُ الْقُرْآنُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ...)⁵⁴.

وَكَذَلِكَ تَرْوِيضُهُ عَلَى مِرَاقِبَةِ اللَّهِ وَهُوَ يَفْكَرُ لِيَتَعَلَّمَ الْأَفْكَارَ الَّتِي تَقْرِبُهُ مِنْ خَالِقِهِ الْعَظِيمِ وَالَّتِي بِهَا يَنْفَعُ نَفْسَهُ وَمَجْتَمَعَهُ وَالنَّاسَ أَجْمَعِينَ. وَأَيْضًا تَرْوِيضُهُ عَلَى مِرَاقِبَةِ اللَّهِ وَهُوَ يَحْسُنُ. فَيَتَعَلَّمُ كُلَّ إِحْسَاسٍ نَظِيفٍ وَيَتَرَبَّى عَلَى كُلِّ شُعُورٍ طَاهِرٍ.. وَهَذَا النَّمَطُ مِنَ التَّرْبِيَةِ وَالْمِرَاقِبَةِ قَدْ وَجَّهَ إِلَيْهِ الْمُرَبِّي الْأَوَّلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي إِجَابَتِهِ السَّائِلَ عَنِ الْإِحْسَانِ: " أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَمَا أَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ " ⁵⁵.

وَهَذِهِ الظَّاهِرَةُ مِنَ التَّرْوِيضِ وَالتَّعْلِيمِ كَانَتْ دِينِ السَّلَفِ الصَّالِحِ فِي تَرْوِيضِهِمْ لِأَوْلَادِهِمْ وَتَأْدِيبِهِمْ عَلَيْهَا⁵⁶.

وَحِينَمَا يَنْهَجُ الْمُرَبِّونَ فِي تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ هَذَا النِّهْجَ وَيَسِيرُ الْأَبَاءُ وَالْأُمَّهَاتُ فِي تَأْدِيبِ الْأَوْلَادِ عَلَى هَذِهِ الْقَوَاعِدِ يَسْتَطِيعُونَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي فِتْرَةٍ يَسِيرَةٍ مِنَ الزَّمَنِ أَنْ يَكُونُوا جِيلًا مُسْلِمًا مُؤْمِنًا بِاللَّهِ مَعْتَرِزًا بِدِينِهِ، مَفْتَحِرًا بِتَارِيخِهِ وَأَمْجَادِهِ، وَيَسْتَطِيعُونَ كَذَلِكَ أَنْ يَكُونُوا مَجْتَمَعًا نَظِيفًا مِنَ الْإِلْحَادِ وَالْمِوَعَةِ وَالْحَقْدِ، وَنَظِيفًا مِنَ الْجَرِيمَةِ⁵⁷.

رَابِعًا: التَّوَجُّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالصَّلَاةِ، وَالتَّوَجُّهُ إِلَى النَّاسِ بِالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ تَعَالَى وَالصَّبْرُ فِي سَبِيلِ الدَّعْوَةِ وَمَتَاعِبِهَا:
أ - الْأَمْرُ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ:

51 (الْقُرْطُبِيُّ: الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ 67/14.

52 (سَيِّدُ قُطْبٍ: فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ 2789/5.

53 (الْقُرْطُبِيُّ: الْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ 67/14.

54 (سُورَةُ الْبَيِّنَةِ: آيَةٌ (5)

55 (مُسْلِمٌ: صَحِيحٌ مُسْلِمٌ بِشَرْحِ النَّوَوِيِّ 272/2 كِتَابُ الْإِيمَانِ (1) ، بَابُ بَيَانِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ (1) ، رَقْمُ

الْحَدِيثِ (1) .

56 (عَبْدِ اللَّهِ عَلَوَانُ: تَرْبِيَةُ الْأَوْلَادِ فِي الْإِسْلَامِ 159/2 - 160

57 (الْمُرْجِعُ السَّابِقُ 161/2.

يَقُولُ لُقْمَانُ لِابْنِهِ كَمَا وَرَدَ فِي قَوْلِ الْحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾⁵⁸ فَرَضَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ عِبَادَاتٍ لَهَا أَثَرُهَا فِي تَهْدِيْبِ سُلُوكِ الْإِنْسَانِ، وَإِصْلَاحِ الْقُلُوبِ، وَمِنْ هَذِهِ الْعِبَادَاتِ :

الصَّلَاةُ:

وَهِيَ الرُّكْنُ الثَّانِي مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَعَمُودُهُ الَّذِي لَا يَقُومُ إِلَّا بِهِ فَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذُرْوَةٌ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ" الْحَدِيثُ⁵⁹. فَالصَّلَاةُ هِيَ أَوَّلُ مَا أَوْجِبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ، وَهِيَ أَوَّلُ مَا يُحَاسِبُ عَلَيْهِ الْعَبْدَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: "إِنْ أَوَّلُ مَا يُحَاسِبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ ... " الْحَدِيثُ⁶⁰.
إِنَّ الْمَتَمَعْنَ بِالْعِبَادَاتِ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - عَلَى النَّاسِ - عُمُومًا، وَالصَّلَاةَ خُصُوصًا يَذْرُؤُهَا التَّرْبِيوي فِي إِشْرَاقَةِ النُّفُوسِ، وَطَمَائِينَةِ الْقُلُوبِ، وَإِصْلَاحِ الْفَرْدِ وَالْجَمَاعَةِ، وَمِنْ هَذِهِ الْأَثَارِ التَّرْبِيويَّةِ مَا يَلِي:

- إِقَامَةُ الصَّلَاةِ دَلِيلٌ عَلَى صِدْقِ الْإِيمَانِ، وَعَلَى تَقْوَى اللَّهِ، وَعَلَى مَا يَتَمَتَّعُ بِهِ صَاحِبُهَا مِنْ بَرِهِ بَعْدَهُ وَقِيَامِهِ عَلَى الْحَقِّ وَإِخْلَاصِهِ لِلَّهِ⁶¹، قَالَ تَعَالَى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)⁶².
- الصَّلَاةُ مَنَهَجٌ مُتَنَاسِقٌ لِتَرْبِيَةِ الْفَرْدِ وَالْمَجْتَمَعِ يَصِلُ بِهِمَا إِلَى قِمَّةِ السَّمَوِ الْأَخْلَاقِي⁶³، قَالَ تَعَالَى: (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ...) الْآيَةُ⁶⁴.
- الصَّلَاةُ تَمُدُّ الْمُؤْمِنَ بِقُوَّةٍ رُوحِيَّةٍ تَعِينُهُ عَلَى مُوَاجَهَةِ الْمَشَقَّاتِ وَالْمَكَارِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)⁶⁵.
- إِنَّ الصَّلَاةَ سَبَبٌ لِمَحْوِ الْخَطَايَا وَغُفْرَانِ الذُّنُوبِ فَقَدْ ثَبَتَ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: "أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خُمْسًا مَا تَقُولُ ذَلِكَ يَبْقَى مِنْ دَرْنِهِ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرْنِهِ شَيْءٌ، قَالَ: "فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخُمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا"⁶⁶.
- فِي الصَّلَاةِ تَدْرِيْبٌ لِلْمُسْلِمِ عَلَى النِّظَامِ وَتَعْوِيْدٌ لَهُ عَلَى الطَّاعَةِ، وَيُظْهِرُ هَذَا وَاضِحًا فِي صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ إِذْ يَقِفُ الْمُسْلِمُونَ فِي صُفُوفٍ مُسْتَقِيمَةٍ مُتَلَاصِقَةٍ فَلَا عُوجَ وَلَا فَرْجَ، الْمُنْكَبُ إِلَى الْمُنْكَبِ، وَالْقَدَمُ إِلَى الْقَدَمِ، فَإِذَا كَبَّرَ الْإِمَامُ كَبَّرُوا، وَإِذَا قَرَأَ أَنْصَتُوا، وَإِذَا رَكَعَ رَكَعُوا، وَإِذَا سَجَدَ سَجَدُوا، وَإِذَا سَلَّمَ سَلَّمُوا.
- فِي صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ دَعْمٌ لِعَاطِفَةِ الْأَخُوَّةِ وَتَقْوِيَّةٌ لِرُوَابِطِ الْمَحَبَّةِ وَإِظْهَارٌ لِلْقُوَّةِ، فَبِالاجْتِمَاعِ تَذْهَبُ الضَّغَائِنُ وَتَنْزُولُ الْأَحْقَادِ وَتَتَأَلَّفُ الْقُلُوبُ وَتَتَّحِدُ الْكَلِمَةُ.
- ب - بَعْدَ مَا أَمَرَ لُقْمَانُ ابْنَهُ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَعَدَمِ الْإِشْرَاقِ بِهِ، وَالْقِيَامِ بِبِرِّ الْوَالِدِينَ وَالثَّقَةِ بِعَدَالَةِ الْجَزَاءِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ بِالصَّلَاةِ، أَمَرَهُ بِالْقِيَامِ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ أَثَارِ حُبِّ

58 (سُورَةُ لُقْمَانَ: آيَةُ (18) .

59 (التِّرْمِذِي: الْجَامِعُ الصَّحِيحُ 12/5 كِتَابُ الْإِيمَانِ (41) بَابُ مَا جَاءَ فِي حُرْمَةِ الصَّلَاةِ (8) رَقْمُ الْحَدِيثِ (2616)

60 (التِّرْمِذِي: الْجَامِعُ الصَّحِيحُ 270/2 أَبْوَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسِبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الصَّلَاةَ

(305) ، رَقْمُ الْحَدِيثِ (413).

61 (عبد الفتاح عاشور: مَنَهَجُ الْقُرْآنِ فِي تَرْبِيَةِ الْمَجْتَمَعِ ص 193.

62 (سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: الْآيَاتَانِ (1 - 2).

63 (عبد الفتاح عاشور: مَنَهَجُ الْقُرْآنِ فِي تَرْبِيَةِ الْمَجْتَمَعِ ص 194.

64 (سُورَةُ الْعَنَكَبُوتِ: آيَةُ (45).

65 (سُورَةُ الْبَقَرَةِ: آيَةُ (153).

66 (الْبُخَارِيُّ: صَحِيحُ الْبُخَارِيِّ بِشَرْحِ فَتْحِ الْبَارِي 11/2، كِتَابُ مَوَاقِيْتِ الصَّلَاةِ (9)، بَابُ الصَّلَوَاتِ الْخُمْسِ كَفَّارَةَ (6)،

رَقْمُ الْحَدِيثِ (528).

الْفَضِيلَةَ وَأَسَاسٍ مِنْ أَسَاسِ صِلَاحِ الْمُجْتَمَعِ الْإِنْسَانِيِّ بِالإِضَافَةِ إِلَى أَنْ مِمَّارِسْتَهُ يَوْقِظُ الشُّعُورَ وَيُنْبِئُهُ الضَّمِيرَ وَيُخَيِّفُ الْمُقَدِّمَ عَلَى الْمُنْكَرِ، وَإِذَا تَضَامَنَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ - كَمَا هُوَ الْوَاجِبُ شَرْعًا - وَوَجَدَ تَضَامَنَ النَّاسِ عَلَى الْفَضِيلَةِ فَلَا تَضْيَعُ بَيْنَهُمْ، وَوَجَدَ تَضَامَنَهُمْ عَلَى اسْتِنْكَارِ الرَّذِيلَةِ فَلَا تُوجَدُ بَيْنَهُمْ⁶⁷.

لَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ هَذِهِ الْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، كَمَا جَعَلَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مَنَاطَ هَذِهِ الْخَيْرِيَّةِ مَعَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ تَعَالَى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)⁶⁸.

فَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَمَحَاوَلَةُ تَغْيِيرِ الْمُنْكَرِ بِالنَّصِيحَةِ وَبِالطَّرِيقِ الْعَمَلِيَّةِ الْمُثْمَرَةَ مَسَاهِمَةٌ جَلِيلَةٌ فِي صِيَانَةِ الْمُجْتَمَعِ وَتَقْوِيمِهِ وَإِصْلَاحِهِ، وَكُلُّ مَسَاهِمَةٍ فِي إِصْلَاحِ الْمُجْتَمَعَاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَقْوِيمِهَا وَصِيَانَتِهَا أَعْمَالٌ أَخْلَاقِيَّةٌ فَاضِلَةٌ.

فَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنْكَارِهِ وَمَحَاوَلَةُ تَغْيِيرِهِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ الْإِيمَانِيَّةِ لَمَّا فِيهَا مِنْ خِدْمَةِ اجْتِمَاعِيَّةٍ، وَصِيَانَةِ لِلْمُجْتَمَعَاتِ عَنِ الْإِنْزِلَاقِ فِي مَزَالِقِ الْإِنْحِرَافِ، وَلِذَلِكَ حَرَصَ الْإِسْلَامُ حَرَصًا شَدِيدًا عَلَى جَعْلِ كُلِّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ حَرَّاسًا لِأَسْوَارِ الْفَضَائِلِ وَتَعَالِيمِ الدِّينِ الْحَنِيفِ فَمَنْ جَاهَدَ مِنْهُمْ الْمُنْحَرِفِينَ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ خَرْدَلٍ. فَوْضِيْفَةٌ حِرَاسَةُ الْمُجْتَمَعِ لِحِمَايَتِهِ مِنَ الْإِنْحِرَافِ وَظِيْفَةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ لَا يَجُوزُ التَّخْلِي عَنْهَا فِي أَيِّ حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ فَإِذَا حَدَثَ ذَلِكَ تَعَرَّضَتِ الْأُمَّةُ كُلُّهَا لِلْعُقُوبَةِ الْعَامَّةِ⁶⁹.

ج - الصَّبْرُ مِنَ الدَّاعِي فِي سَبِيلِ مَا يَلْفَاقُهُ مِنْ أَعْدَاءِ دَعْوَتِهِ، ذَلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ أَعْدَاءٌ لِمَا جَهِلُوا، وَتَحْوِيلُهُمْ مِنْ عَقِيدَةٍ اعْتَنَقُوهَا فِتْرَةٌ مِنَ الزَّمَنِ، وَلَوْ كَانَتْ بَاطِلَةً إِلَى عَقِيدَةٍ أُخْرَى لَمْ يَأْلَفُوهَا وَإِنْ كَانَتْ هِيَ الْحَقُّ، أَمْرٌ صَعِبٌ عَلَى النَّفْسِ، وَلِهَذَا أَوْصَى لُقْمَانَ ابْنَهُ بِالصَّبْرِ، يَقُولُ الْحَقُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى لِسَانِ لُقْمَانَ (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)⁷⁰، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ عِنْدَمَا يَتَعَرَّضُ لِدَعْوَةِ النَّاسِ إِلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، لَا يَدْرِي أَنْ يَتَّصِدَّ لَهُ أَهْلُ الشَّرِّ، وَيُنَالُهُ مِنْهُمْ أَدَى وَلَوْ كَانَ قَلِيلًا، فَأَمْرٌ لُقْمَانَ ابْنَهُ بِالصَّبْرِ عَلَيْهِ. يَقُولُ سَيِّدُ قَطْبٍ فِي تَفْسِيرِهِ هَذِهِ الْآيَةَ: "وَهَذَا هُوَ طَرِيقُ الْعَقِيدَةِ الْمَرْسُومِ. تَوْحِيدِ اللَّهِ، وَشُعُورِ بِرِقَابَتِهِ، وَتَطَلُّعِ إِلَى مَا عِنْدَهُ، وَثِقَّةٍ فِي عَدْلِهِ، وَخَشْيَةٍ مِنْ عِقَابِهِ. ثُمَّ انْتَقَالَ إِلَى دَعْوَةِ النَّاسِ وَإِصْلَاحِ حَالِهِمْ، وَأَمْرَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيِهِمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالتَّزْوُدِ قَبْلَ ذَلِكَ كُلِّهِ لِلْمَعْرَكَةِ مَعَ الشَّرِّ، بِالزَّادِ الْأَصِيلِ زَادَ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ وَالتَّوَجُّهَ إِلَيْهِ بِالصَّلَاةِ ثُمَّ الصَّبْرَ عَلَى مَا يُصِيبُ الدَّاعِيَةَ إِلَى اللَّهِ، مِنَ التَّوَاءِ النَّفْسِ وَعِنَادِهَا، وَانْحِرَافِ الْقُلُوبِ وَإِعْرَاضِهَا. وَمَنْ الْأَدَى تَمْتَدُّ بِهِ الْأَلْسِنَةُ وَتَمْتَدُّ بِهِ الْأَيْدِي. وَمَنْ الْإِبْتِلَاءُ فِي الْمَالِ وَالْإِبْتِلَاءُ فِي النَّفْسِ عِنْدَ الْإِقْتِضَاءِ" إِنْ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ "وَعَزْمِ الْأُمُورِ قَطْعُ الطَّرِيقِ عَلَى التَّرَدُّدِ فِيهَا بَعْدَ الْعَزْمِ وَالتَّصْمِيمِ"⁷¹.

فَبِالصَّبْرِ يَتِمَّكَّنُ الْإِنْسَانَ بِطَمَآنِينَةٍ وَثَبَاتٍ أَنْ يَضَعَ الْأَشْيَاءَ فِي مَوَاضِعِهَا، وَيَتَصَرَّفُ فِي الْأُمُورِ بِعَقْلِ وَاتِّزَانٍ وَيَنْفِذُ مَا يُرِيدُ مِنْ تَصَرُّفٍ فِي الزَّمَنِ الْمُنَاسِبِ، بِالطَّرِيقَةِ الْمُنَاسِبَةِ الْحَكِيمَةِ، وَعَلَى الْوُجْهِ الْمُنَاسِبِ الْحَكِيمِ، بِخِلَافِ عَدَمِ الصَّبْرِ الَّذِي يُدْفِعُ إِلَى التَّسْرِعِ وَالْعَجَلَةِ فَيَضَعُ الْإِنْسَانَ الْأَشْيَاءَ فِي غَيْرِ

67 (عَلِيٌّ حَسَنُ الْعَرِيضِ: فَتْحُ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ سُورَتِي الْفَاتِحَةِ وَلِقْمَانَ ص 92.

68 (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: آيَةٌ (110)

69 (عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْمِيدَانِيُّ: الْأَخْلَاقُ الْإِسْلَامِيَّةُ 630/2 - 632.

70 (سُورَةُ لُقْمَانَ: آيَةٌ 171

71 (سَيِّدُ قَطْبٍ: فِي ظِلَالِ الْقُرْآنِ 2790/5.

مواضعها، ويتصرف برعونة فيخطئ في تحديد الزمان، ويسيء في طريقة التنفيذ، وربما يكون صاحب حق أو يريد الخير فيغدو جانبا أو مُفسدا ولو أنه اعتصم بالصبر لسلِم من كل ذلك⁷². لهذا أوصى لقمان ابنه بالصبر، لأن الصبر على المصائب يبقى للفعل نوره، ويبقى للشخص وقاره، ولذا كان الصبر من الآداب الرفيعة والأخلاق القويمة، وصفة من صفات المؤمن، وسمة من سمات المبشرين بالأجر العظيم من الله عز وجل قال تعالى: (إِنَّمَا يُؤَفِّي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)⁷³.

ونخلص مما سبق أن لقمان رتب وصيته هذه بحسب أهميتها للداعية، حيث بدأها بتربية النفس على طاعة الله (يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ) ثم ثنى بدعوة الآخرين (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ) ثم أمر بالصبر على ما يصيبه وتحمل ما يتعرض له من الأذى (وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ).

وهكذا يربي لقمان ابنه على منهج العبادة، حيث أن العبادة في الإسلام تربي الإنسان المسلم على الوعي الفكري الدائم، وهذا ما يجعله إنسانا منطقياً واعياً في كل أمور حياته، ومنهجياً لا يقوم بعمل إلا ضمن خطة ووعي وتفكير، إلى جانب ذلك فهو في يقظة دائمة يراقب الله في كل أعماله⁷⁴.

خامساً: الآداب الاجتماعية: يستطرد لقمان في وصيته التي يحكيها القرآن هنا إلى آداب الداعية إلى الله، فالدعوة إلى الخير لا تجيز التعالي على الناس والتطاول عليهم باسم قيادتهم إلى الخير، ومن باب أولى يكون التعالي والتطاول بغير دعوة إلى الخير أقبح وأرذل⁷⁵.

ولهذا لما أمر لقمان ابنه بأن يكون كاملاً في نفسه، مكملاً لغيره، كان يخشى بعدها من أمرين، **أحدهما:** التكبر على الغير بسبب كونه مكملاً به.

والثاني: التبخثر في النفس بسبب كونه كاملاً في نفسه⁷⁶.

يقول تعالى حكاية عن لقمان وهو يعظ ابنه: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}⁷⁷. {وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}⁷⁸.

يمكن القول بأن التكبر ليس من أخلاق المؤمن، فلو عرف المتكبر حقيقة نفسه، أي: أن أوله نطفة قدرة، وآخره جيفة منتنة، لخجل من نفسه، ووقف عند حده، وأخلص العبادة لربه، وتواضع لخالقه، لأن الإنسان كلما تواضع لله رفعه الله، وكلما تكبر عليه وضعه وقصمه، وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بقوله: "ما تواضع أحد لله إلا رفعه الله"⁷⁹. وقال أيضاً: "ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم، قال أبو معاوية: ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، ومملك كذاب، وعائل مستكبر"⁸⁰.

ويتضح من الوصايا التي وصى بها لقمان ابنه أنها تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً، وإلى تركها إن كانت نهياً.

72 (عبد الرحمن الميداني: الأخلاق الإسلامية 293/2.

73 (سورة الزمر: آية (10) .

74 (عبد الرحمن النحلوي: أصول التربية الإسلامية ص 54 - 55.

75 (سيد قطب: في ظلال القرآن 2790/5.

76 (الفخر الرازي: التفسير الكبير 149/25.

77 (سورة لقمان: آية (18) .

78 (سورة لقمان: آية (19) .

79 (مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي 378/16، كتاب الأبر والصلة والآداب (45) ، باب استخباب العفو والتواضع

(19) ، رقم الحديث 2588/69.

80 (مسلم: صحيح مسلم بشرح النووي 647/2، كتاب الإيمان (1) ، باب بيان غلظ تحريم

(46) ، رقم الحديث 107/172.

فَأَمْرُهُ بِأَصْلِ الدِّينِ وَهُوَ التَّوْحِيدُ، وَنَهَاهُ عَنِ الشَّرْكِ وَبَيَّنَ لَهُ الْمُوجِبَةَ لِتَرْكِهِ. وَأَمْرُهُ بِبِرِّ الوَالِدِينَ وَبَيَّنَ لَهُ السَّبَبَ الْمُوجِبَ لِبِرِّهِمَا وَأَمْرُهُ بِشُكْرِهِمَا وَشُكْرَهُمَا ثُمَّ احْتَرَزَ بِأَنْ مَحَلَّ بِرِّهِمَا وَامْتِثَالِ أَمْرِهِمَا مَا لَمْ يَأْمُرْ بِمَعْصِيَةٍ وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا يَعْقِبُهُمَا بَلْ يَحْسُنُ إِلَيْهِمَا، وَإِنْ كَانَ لَا يَطِيعُهُمَا إِذَا جَاهَدَاهُ عَلَى الشَّرْكِ. وَأَمْرُهُ بِمِرَاقَبَةِ اللَّهِ وَخَوْفِهِ الْقُدُومِ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ إِلَّا أَتَى بِهَا. وَأَمْرُهُ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَبِالصَّبْرِ الَّذِي يَسْهَلُ بِهِمَا كُلَّ أَمْرٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} . وَنَهَاهُ عَنِ التَّكْبَرِ، وَأَمْرُهُ بِالتَّوَاضُعِ، وَنَهَاهُ عَنِ الْبَطْرِ وَالْأَشْرِ وَالْمَرْحِ، وَأَمْرُهُ بِالسُّكُونِ فِي الْحَرَكَاتِ وَالْأَصْوَاتِ، وَنَهَاهُ عَنِ ضِدِّ ذَلِكَ⁸¹.

فَالْوَصَايَا السَّابِقَةُ هِيَ مَنَهَجُ الْأَدَابِ السَّامِيَةِ الَّتِي يُؤَدَّبُ اللَّهُ عِبَادَهُ ذَلِكَ، لِأَنَّ فِيهَا امْتِثَالَهَا سَعَادَتُهُمْ وَفَلَاحُهُمْ دُنْيَا وَآخِرَةً هَذَا مِنْ جِهَةٍ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى فَأِنَّهُمْ يَرَوْنَ أَثَارَهَا التَّرْبُوبِيَّةَ فِي تَوْجِيهِهِ وَتَهْذِيبِ سُلُوكِهِمْ، وَتَعْمَلُ عَلَى زِيَادَةِ الْأَلْفَةِ وَالْمَحَبَّةِ بَيْنَهُمْ كَمَا يُؤَدِّي هَذَا إِلَى تَمَاسُكِ مَجْتَمَعِهِمْ.

المبحث السادس: التعريف بسورة الحجرات

تتألف سورة الحجرات من ثمانية عشرة آية. تسمى هذه السورة بالحجرات لورود هذه المفردة فيها، نزلت في المدينة المنورة، وهي أول سورة مدنية، وهذا له دلالة معينة، فهي من السور ذات الرموز البنائية التربوية التعاملية التي تحتاجها الأمة، والمتأمل للسورة المدنية يجدها هكذا، فبعد الانتهاء من البناء العقدي للنفوس في المرحلة المكية صار لديها استعداد لتقبل وتنفيذ أمر الله بكل طواعية وتلقائية وانقيادية، لأن ذرات الإيمان قد امتزجت مع خلايا الدم في عروق المؤمنين فصاروا أداة لينة في تقبل التكليف التي أمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصار لديهم استعداد للتضحية، والدليل أنهم قدموا أرواحهم رخيصة في سبيله سبحانه وتعالى، لهذا صار لا بد من اكتمال المشروع الإسلامي خلال المرحلة الثانية منه، وهي المرحلة المدنية. فلقد تم البناء الأول في المرحلة المكية وهي ترسيخ أسس هذا الدين وهو التجرد من شوائب التبعية للقبليَّة والأسياد والسجود للأصنام إلى صرف السجود والخضوع إلى رب واحد بدلاً من الأرباب بكل عفوية ومحبة وخوف ورجاء وتلقائية واندفاع، فصاروا بحاجة ماسة إلى البناء الآخر وهو بناء التعامل، لأن من يتبع هذا الدين ينتظره دور خطير على مسرح الحياة لإنقاذ البشرية وإخراجها إلى ساحات النور، فلا بد من أن نقدم الصورة الحقيقية لهؤلاء الذين كـمـا أراد الله أن يكونون.

وسميت بالحجرات لأن الله تعالى ذكر فيها تأديب أجلاف العرب الذين ينادون رسول الله من وراء الحجرات، وهي حجرات نسانه المؤمنات الطاهرات. وتسمى أيضاً بسورة الأخلاق والآداب، فقد أرشدت إلى آداب المجتمع الإسلامي وكيفية تنظيمه، وأشادت بمكارم الأخلاق وفضائل الأعمال، ونودي فيها بوصف الإيمان خمس مرات.

وموضوع هذه السورة أحكام شرعية وهي أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع الإسلامي على أساس متين من التربية القوية والأخلاق الرضية، فيها الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب، وآدابها خاص وعم.

وإن سورة الحجرات فيها منهج يجب أن يعلمه كل منا لأبنائنا بعد أن نتعلمه نحن أولاً، ففيها السلوك الإسلامي الذي لو اتبعه المسلمون لتغيرت أحوالهم من سيئ إلى أحسن، ولعاشوا في عزة وألفة بدلاً من الذل والهوان.

الوحدة الموضوعية لسورة الحجرات.

⁸¹ (عبد الرَّحْمَنِ السُّعْدِيُّ: تيسير الكَرِيمِ الرَّحْمَنِ فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَنَانِ 79/6.

بما أنها سميت سورة الأخلاق والآداب فقد ركزت كثيرا على أخلاق وآداب معينة يجب على المؤمن التحلي بها، وأرفع تلك الآداب وأعلاها هو التلقي عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في كل شأن، وعدم التقدم على أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في شيء ثم يأمر المؤمنين بالتقوى. ثم تتحدث السورة عن الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو مرتبط مع الآية الأولى، فمن عرف قدر الرسول عليه السلام ومكانته عند ربه فلا بد من أن يتأدب معه ثم تتحدث السورة عن المنهج الذي يلتزمه المسلم في تلقي الأخبار وقبولها وروايتها وهو التثبت والتحري وعدم تناقل الأخبار بدون ترو أو معرفة صدقها من كذبها.

ثم تتحدث السورة عن المنهج الذي يجب على الأمة المسلمة أن تلتزمه تجاه أولادها إذا وقع بين فئتين منهما شجار وأدى إلى الخصومة والقتل، فموقف الأمة أن تحكم شرع الله وهدى نبيه وعدم التقدم بين يدي الله ورسوله وتعمل على الصلح بين الفئتين.

ثم أعلنت قيام رابطة الإخاء والود بين المؤمنين، وحذرت من تفكك الجماعة المؤمنة وإثارة النزاع بين أفرادها وتوليد الأحقاد والضغائن والكرهية، بسبب السخرية والهمز واللمز والتنايز بالألقاب، سواء بين الرجال أو النساء أو بسبب سوء الظن بالمسلم والتجسس والغيبة والنميمة.

ثم أعلنت مبدأ الإخاء الإنساني، والمساواة بين الشعوب والأفراد من مختلف الأجناس والألوان، فلا عداوة ولا طبقية ولا عنصرية، وإنما التفاضل بالتقوى والعمل الصالح ومكارم الأخلاق، وهكذا تناولت هذه السورة على قصرها كل محاور العلاقات الاجتماعية، فبيّنت ضوابط علاقة المجتمع المسلم بمصدر التشريع، وعلاقة المجتمع المسلم بغيره من المجتمعات، وعلاقته ببعضه البعض أفراداً وجماعات، وبيّنت منظومة المجتمع الأخلاقية التي تتحلي بها، كما بيّنت علاقته بالإنسانية جمعاء، فكانت آية في الإيجاز والإعجاز بحيث قدمت ما عجزت الحضارات الإنسانية جمعاء من تقديمه أو تقديم جزء منه على مدى التاريخ، وها نحن اليوم في القرن الحادي والعشرين والإنسانية لا تزال تتخبط وتتناقض في ضبط علاقاتها وتكييف أخلاقها، ولكن هيهات هيهات أن يأتي المخلوق بمثل ما أتى به الخالق عز وجل.

وختمت السورة بالكلام عن الأعراب، فميزت بين الإيمان والإسلام، وذكرت صفات المؤمنين وشروط المؤمن الكامل، وعابت المن على الرسول بالإسلام ووضعت ضابط احترام القيم الدينية والأخلاقية، وهو رقابة الله جل جلاله لعباده، وعلمه بغيب السماوات والأرض وبصره بجميع أعمال

الخلق. 82

وخلاصة هذا المبحث أن سورة الحجرات تعتبر مدرسة متكاملة تربي في ضوئها أصحاب محمد صلى عليه وسلم، فإنها مع قصرها، وقلة عدد آياتها جاءت شاملة بالآداب والأحكام والأوامر والنواهي قد لا تجدها مجتمعة في سورة سواها.

فهي سورة جليلة عظيمة، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة، ومن حقائق الوجود والإنسانية، حقائق تفتح للقلب والعقل آفاقاً عالية وأماداً بعيدة وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة، ومعاني كبيرة، وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم وقواعد التربية والتهديب ومبادئ التشريع، ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات. وهي تبرز للمتمعن فيها أمام أمرين عظيمين للتدبر والتفكير: **أولهما:** أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة، لعلم رفيع كريم نظيف سليم متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم والتي تكفل قيامه أولاً، وصيانه أخيراً..... عالم يصدر عن الله ويتجه إلى الله ويليق أن ينتسب إلى الله.... عالم نقي القلب، نظيف المشاعر، عف اللسان، وقبل

ذلك عف السريرة، عالم له أدب مع الله، وأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره، أدب في هواجس ضميره، وفي حركات جوارحه، وفي الوقت ذاته له شرائعه المنظمة لأوضاعه، وله نظمه التي تكفل صيانتها، وهي شرائع ونظم تقوم على تلك الأدب.

وثانيهما: الجهد الضخم الثابت المطرد الذي تمثله توجيهات القرآن الكريم، والتربية النبوية الحكيمة لإنشاء الجماعة المسلمة، وتربيتها التي تمثل العالم الرفيع الكريم الذي تحقق على الأرض ولم يكن فكرة مثالية ولا خيالاً أدبياً، فكانت الرعاية الإلهية تحف هذه الجماعة المختارة لحمل الأمانة الكبرى، فكانت بحق خير أمة أخرجت للناس، وقرنها خير القرون.

وكما ربطت الآية الأولى المؤمنين بتقوى الله والإيمان بأسماء الله وصفاته، فإنها تختتم كذلك بصفة من أعظم صفات الله سبحانه. إنها صفة العلم التي اختتمت الآية بها. فما أجملها من خاتمة تربط بين أول السورة وآخرها.

فهذا إذن تعريف بالسورة، وأهم ما تناولته باختصار، ومنتقل إلى المبحث الثاني لنتناول فيه معنى السورة.

المبحث السابع: منهج السورة في تقرير آداب وضوابط المجتمع الإسلامي.

لا شك أن منظومة الآداب التي عرضتها السورة على قصرها وإيجازها تشكل توجيهاً تربوياً معجزاً في حد ذاته، إلا أن حقيقة الإعجاز تتمثل في الأساليب التي قررت السورة من خلالها هذه الآداب لتترسخ حقائق ثابتة مستقرة في الضمير الإسلامي بحيث لا يكون انخراطها إلا نتيجة زلة أو كبرية عابرة، وهذه بعض معالم المنهج القرآني في هذه السورة التي تم من خلالها هذا التوجيه لتكتمل منظومة الإعجاز التربوي لهذه السورة العظيمة.

الفرع الأول: وسائل تعزيز التوجيهات التربوية والأخلاقية.

لقد تعددت وسائل التوجيه التربوي في هذه السورة الكريمة، ولم يكن هذا التعدد مجرد تنويع لغرض التنويع، وإنما غاية التوافق بين الغاية التربوية والطبيعة البشرية وفيما يلي إشارات عابرة لجملة من تلك الوسائل.

أولاً: الترغيب والترهيب.

إذا تأملنا مجموع الآيات التي ضمت الآداب والضوابط المتقدمة ظهرت لنا مجموعة من إشارات الترغيب والترغيب التي تذيّل تلك الآيات، بحيث تعمل مجتمعة على تحقيق منظومة متزنة من الدوافع والموانع التي تدفع الفرد المسلم والمجتمع نحو السلوك المرغوب فيه، وتحجزه عن السلوك المرغوب عنه، فعلى سعيد الترغيب تجد قوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ "83 تحذير وترهيب من عواقب الافتئات على الله ورسوله، وفي مقابل ذلك قوله تعالى ترغيباً في حال الملتزمين بأدب التوقف بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ "84 وكذلك تجد وصف: " إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ "85 يقابله فتح باب التوبة والمغفرة " وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ "86

83 الحجرات 02

84 الحجرات 03

85 الحجرات 04

86 الحجرات 05

وبهذا يتحقق التوازن بين الترغيب والترهيب توافقاً مع الاستعداد المزدوج في النفس البشرية لتحصيل ما فيه خيرها ودرء ما فيه شرها ومفسدها، وما هذا إلا شاهدٌ من الشواهد الكثيرة على فطرية هذا الدين ومصدريته من لدن حكيم عليم، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

ثانياً: التذكير بنعمة الله وفضله.

وهذا التذكير بالفضل مدعاة الالتزام بالهدي الإلهي والوقوف عند توجيهاته، لنتأمل على سبيل المثال قوله تعالى: "وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ" ⁸⁷ فجعل العصيان والفسوق والكفر في مقابل نعمة الإيمان بحيث يرغب من استقر الإيمان في قلبه عن أن يجمع إليه من النفاض ما يكون كفرأ بنعمة الله عز وجل.

ولعل من العبارات القرآنية الصريحة في هذا السياق قوله تعالى: "يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" ⁸⁸. وهنا نكتة دقيقة وهي أنه لما ذكر امتنان الأعراب بالاستجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم جاء بلفظ الإسلام ليدل على عدم بلوغهم مراتب الكمال، في حين أنه لما ذكر امتنان الله عليهم بهذا الدين جاء بلفظ الإيمان الدال على تمام نعمة الهداية، فتم فضل الله وظهر قصور عباده عن أداء حق الشكر كما زعموا، والله أعلم.

ثالثاً: بيان عواقب عدم التزام هذه الآداب.

لقد جاءت الآيات في هذه السورة بجملة من التنبيهات على خطورة العواقب المترتبة على ترك التزام منظومة الأخلاق القرآنية المعروضة، ففي سياق الأمر بالثبوت في الأخبار جاء التحذير من عاقبة الندم المترتبة على التصرف بغير علم وثبوت وتبيين، فقال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ" ⁸⁹ وفي سياق النهي عن القباح الاجتماعية – كالسخرية والتنازب واللمز – جاء التحذير من وقوع الظلم بين أفراد المجتمع نتيجة الاستهزاء بالغير والافتراء عليه ومبالغة الغير في الرد على تلك السخرية والافتراءات، فقال تعالى: "بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ" ⁹⁰.

رابعاً: تنمية الوازع النفسي للالتزام بهذه الأخلاق.

إن أحداً لا يستطيع أن يفرض التزام مبدأ من المبادئ أو خلقاً من الأخلاق بقوة خارجية أو سلطة قانون، فما هي الدول اليوم تعيش تحت سلطة قوانين وضعية ونظم قضائية وشرطة وقوات عسكرية لكنها لم تستطع أبداً أن تحقق الالتزام الحقيقي بالأخلاق، ولهذا كان لا بد من حل هذه الإشكالية في منظومة الأخلاق الإسلامية، وليس أقدر على ذلك من قوله تعالى في ختام هذه السورة: "إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" ⁹¹ إذ أن استشعار هذه الرقابة الدائمة من الله عز وجل كفيل بت تنمية الوازع النفسي في كل فرد بما يحقق التزامه بهذه الأخلاق والآداب ولو كان في خلوة من الناس أو معزل عن بطش السلطان، وقهر السلطة والقانون، وبهذا فقط تنضبط منظومة الأخلاق في المجتمع. بوازع السلطان ووازع الإيمان ويقظة الضمير، وبهذا يتبين لنا اكتمال عنصر آخر من عناصر الإعجاز في هذه السورة المباركة.

الحجرات 07

الحجرات 17

الحجرات 06

⁹⁰ الحجرات 11

⁹¹ الحجرات 18

الفرع الثاني: تقرير جملة من المبادئ والثوابت العامة.

لقد قررت سورة الحجرات بعض المبادئ التي يعين فهمها على التزام منظومة الأخلاق الواردة في السورة، وبعض هذه المبادئ يوصل المساواة بين الناس بحسب القدر المشترك من طبيعة الخلق البشري، وبعضها الآخر يوصل للقدر المشترك الأدنى من مسمى الإسلام بين من ينتسبون لهذا الدين ويفصل في مقدمات الترقى في درجات الإيمان الأعلى تاركاً تقرير تحقيق ذلك على الحقيقة إلى الله عز وجل، فلنتأمل هذه الآيات: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ "92

ويمكن تعداد المبادئ المستخلصة من هذه الآيات فيما يلي

أولاً: عدم التفاضل في طبيعة الخلق.

فكلنا لآدم وآدم من تراب، ولا يرفع إنساناً فوق إنسان شيء مما له علاقة بطبيعة الخلق البشري كاللون والعرق والجنس؛ فالأب واحد والأم واحدة كما قال تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ "93 قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية: " فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء سواء، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي طاعة الله تعالى ومتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم ".⁹⁴ وبتقرير هذا المبدأ ينتفي في ذهن المكلف أي داعٍ من دواعي الاستعلاء على الغير من حيث صورة خلقه ونسبته البشرية، فيهدم ركن من أركان التفاضل الموهوم الذي قد يسوغ للبعض استحلال عرض أخيه بغيبة أو نميمة أو تجسس أو سخرية أو تنايز ولمز ونحوه.

ثانياً: معيار التفاضل بالتقوى.

بعد تقرير التساوي في النسبة الطينية ونقض التفاضل على أساسها، كان من الطبيعي أن تنبه الآية على معيار التفاضل المعترف شرعاً فقال تعالى: " إن أكرمكم عند الله أتقاكم ". وهنا أمر مهم جداً، وهو أنه لما كان معيار التفاضل المعترف شرعاً هو التقوى، ختمت الآية بقوله تعالى: "... إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ "94 لتنبه إلى أن الله تعالى هو الذي يعلم المتقين من غيرهم، فقطعت بذلك الطريق على أي فرد يريد أن يتفاضل على غيره ولو في هذا المعيار، إذ ليس المقصود من تحديد التقوى معياراً للتفاضل أن يهزأ الناس بعضهم ببعض أو يستبيحوا غيبتهم أو لمزهم أو نحو ذلك لأنهم دونهم في التقوى، وإنما المقصود كف الناس عن بعضهم البعض وردهم في التفاضل إلى علم الله تعالى، لأنه هو سبحانه وحده الذي يعلم المتقي على الحقيقة من غيره، ولقد جاء ذلك بوضوح تام في سورة النجم، حيث قال تعالى: " فَلَا تَزُكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى "95 □

ثالثاً: تحرير أسماء الدين.

92 الحجرات 12-15

93 الحجرات 12

94 تفسير ابن كثير ج:7 ص:385

94 الحجرات 12

95 النجم 32

لما ردت الآية الناس إلى معيار التقوى وكان من المشاهد، ادعاء بعض الناس لأنفسهم مراتب ليست لهم على الحقيقة، كان من اللازم بيان مراتب الإيمان والتنبيه على الفرق بين الإسلام والإيمان، وأن تحقيق هذه الأسماء لا يكون بالتمني والدعوى، وإنما باستكمال المقدمات والأعمال، فلنتأمل قوله تعالى: "قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ" ⁹⁶ قال الحافظ ابن كثير: "والصحيح أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ولم يحصل لهم بعد فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد"، قلنا: ثم بينت السورة ما يلزم لتحقيق مرتبة الإيمان فقال تعالى "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ" ⁹⁷ فبدأت الآية بلفظ "إنما" وهو من أساليب الحصر لتحديد من هم المؤمنون الكمل، وليقف كل فرد عند حده فلا يدعي لنفسه مرتبة ليست له، وعلاقة كل ذلك بمسألة الأخلاق تجريد أفراد المجتمع من أي حجة أو ذريعة وهمية للاستعلاء على إخوانهم المسلمين، فيعود كل فرد إلى ملاحظة عيوبه وأخطائه وقصوره فينشغل بذلك عن تتبع عيوب وأخطاء الآخرين، وهتك سترهم بألفاظ السخرية والنميمة والغيبة واللمز ونحوه، وهذا البيان الشمولي في السورة ثمرة من ثمار الإعجاز القرآني الفريد.

⁹⁶ الحجرات 13

⁹⁷ الحجرات 15. تفسير ابن كثير. ج: 7 ص: 389

الفهرس

3.....	مقدمة
3.....	أهمية البحث
3.....	أسباب البحث في الموضوع
4.....	تمهيد
الفصل الأول: القيم التربوية من خلال سورتي لقمان والحجرات	
5.....	المبحث الأول: مفهوم القيم وأصولها
8.....	المبحث الثاني: مفهوم التربية واشتقاقاتها
8.....	المبحث الثالث: التعريف بسورة لقمان
10.....	المبحث الرابع: بيان الوصايا التي قدمها لقمان لابنه
11.....	المبحث الخامس: الجوانب التربوية لوصايا لقمان
18.....	المبحث السادس: التعريف بسورة الحجرات
20.....	المبحث السابع: منهج السورة في تقرير آداب وضوابط المجتمع الإسلامي
20.....	الفرع الأول: وسائل تعزيز التوجيهات التربوية والأخلاقية
22.....	الفرع الثاني: تقرير جملة من المبادئ والثوابت العامة